نائباً للرئيس ...

قصة بقلم ابو المعاطي ابو النجا

أخرج هاشم علبة سجائره ، وفتحها بعناية ، ثم قدمها لزميله فتحي الذي يجلس في المكتب المجاور ليأخذ منها سيجارة كالعادة ، ولكن فتحي ألقى على العلبة نظرة مترددة ثم قال بلهجة قاطعة :

ـ متشكر .. انا بطلت السجاير ..؟

وارتسمت على شفتي هاشم ابتسامة تنم عن دهشته ، وقال ولاتزال يده ممدودة بالعلبة :

ومتى اتخذت هذا القرار الخطير ؟

ـ أمس ... أمس فقط ..!

ـ ولماذا يا فتحي ؟ كان غيرك أشطر ؟

ـ لقد فكرت طويلا في هذا الموضوع .. وهذا القرار مبني على فكرة .. فكرة خرجت بها من تجربة سنوات مع التدخين ، وانتهيت ليلة امس فقط الى ضرورة الاقلاع عنه ..

ـ وما هذه الفكرة يا فتحي بك ؟

فاعتدل فتحي ، وترك الاوراق التي امامه ، وفي اللحظة نفسها كان الحديث قد اجتذب بقية الزملاء في الحجرة ، فارتفعت بقية الرؤوس عن الاوراق التي امامها ، وكانت تلك عادة الجميع حين يبدأ فتحي حديثا من أي نوع . وأدرك فتحي ان جميع العيون في الحجرة بدأت تلتقي عنده ، فارتفع صوته وهو يقول :

ـ كلنا ندخن وكلنا نعرف ...

وقاطعه هاشم قائلا :

ـ أنتظر حتى اشعل سيجارتي لكي أحسن الاستماع الى فكرتك..

وفي اللحظة نفسها أشعل الاخرون سجائرهم ...!

واستأنف فتحي حديثه قائلا :

« كلنا نعرف كيف تبدأ علاقة الانسان بالسيجارة ؟ ان السيجارة تبدأ علاقتها بالمرء كصديق عزيز ، لا نلتقي به الا قليلا ، انا شخصيا كنت لا ادخن الا حين انفرد بكتاب ، او حين اكون مع صديق في جلسة خاصة ، او حين يكون لدي عمل هام يحتاج الى ان اعصر ذهني فيه ، وبمرور الزمن تتسلل السيجارة الى كل لحظة في حياة المرء ، لحظات السعادة لا طعم لها بلا تدخين ، لحظات الالم لا قدرة على احتمالها بلا تدخين ، حين نعمل لا تتبدد متاعب العمل الا مع حلقات الدخان ، وحين لا نجد ما نعمله يصبح التدخين هو عملنا ، حين ننتظر الاتوبيس لا يستطيع شخص أن يمنع يده من أن تمتد الى علبة سجائره ، وبعد أن نركب نقوم بالشيء نفسه ، حتى القهوة والشاي ، كل شيء في حياة المرء يصبح له طعم التبغ ورائحته ، وفي كلمة يصبح الدخان هو الشيء الوحيد الذي يعقد صلحا منفردا مع كل الاضداد في حياة الانسان ، وحين يبلغ الامر هذا الحد يتولد لدى المرء شعور غريب ، أراهن انكم جميعا تحسون به .. ان السيجارة لا تصبح هذا الصديق بل تخيلوا لو ان صديقا مهما يكن حبنا له يشاركنا حياتنا على هذا النحو ، ونشعر بحاجتنا اليه ، وارتباطنا به بهذه الطريقة ، من المؤكد انه ستتولد في نفوسنا كراهية عميقة لهذا الصديق تعادل حبنا له ، اننا نشعر يوما بعد يوم ان الصداقة تتحول الى زواج ، زواج كاثوليكي ، وهكذا تدخل علاقتنا بالسجائر فيما اسميه بالمرحلة الحرجة ، فنحن منذ البدء ندخن لكي نزيل ما نحس به من توتر ، ولكن التدخين يصبح بدوره مثيرا لتوتر من نوع جديد ، هذا التوتر الذي يشعر به كل انسان يفقد حريته بالنسبة لشخص او شيء مهما تكن المتعة التي يظفر بها من هذا الشخص او هذا الشيء ، ومن هنا تصبح المسألة خيارا بين أمرين : ان يستمر المرء في التدخين ويستمر في الوقت نفسه في معاناة هذا التوتر الخفي الذي نشعر به جميعا دون ان نجرؤ كثيرا على الاعتراف به ، او يمتنع عن التدخين ليواجه توترا مهما بلغت حدته فلا بد ان تكون له نهاية بعد أيام او أسابيع ، هذه الفكرة الاساسية في الموضوع وطبعا لن أتعرض لمسألة النقود ، فكلكم تحفظون تلك المعادلة التي تقول ان شخصا يدخن باعتدال يستهلك كل شهر ما بين ٤ و ٥ جنيهات أي ما بين ٥٠ ، ٦٠ جنيها في العام أي ما يكفي لشراء ثلاث بدل فاخرة ، أو جهاز تليفزيون، او دفع مصاريف تلميذين او ثلاثة في الجامعة ، وطبعا لن اتحدث عن التوتر الاخر الذي ينشأ دائما من تذكر هذه المعادلة ... »

ورجع فتحي بكرسيه الى الوراء بعد ان انتهى من حديثه وهو يرمق بنصف عينيه وجوه الزملاء وبالنصف الاخر حلقات الدخان التي تنعقد في جوانب الحجرة ثم تختفي خلال النوافذ المفتوحة على الطريق .

قال زميل كان لا يزال يجتذب انفاس سيجارته بعمق :

ـ كلامك صحيح ، ولكن عجزنا عن ترك التدخين صحيح كذلك ...! لقد حاولت الاقلاع عن التدخين عشرات المرات وفي النهاية خجلت من تكرار تلك المهزلة فقررت الا اترك التدخين مهما تكن الظروف ...

وقال زميل آخر وهو يطفيء سيجارته في نهايتها :

ـ انا شخصيا لم افكر في الموضوع بهذه الطريقة من قبل، ولكنني لن اقرر شيئا قبل ان اشاهد مصير الاخ فتحي .. في تلك التجربة!

وقال ثالث وهو يطفيء سيجارته من منتصفها :

ـ انا مع فتحي على طول الخط ، ان كلامه حقيقي مائة في المائة ولن يكون وحده في هذه التجربة ..

كان هاشم لا يزال صامتا طول الوقت ، كان اكبر الموظفين سنا وله اولاد في المدارس ، وقال بصوت هادىء : من ناحيتي انا مقتنع تماما بكلام فتحي ، وسأفكر في الموضوع قليلا فقد كان في الحقيقة مفاجاة لي.

* * *

ذاع خبر اقلاع فتحي عن التدخين في المصلحة كلها ، ولكنه لم ينتشر كمجرد خبر بل تردد مدعما باراء فتحي في بداية التدخين ونهايته .. فقد كان فتحي معروفا في المصلحة كلها بانه الرجل الذي يحلل كل شيء ويفلسفه ، والحق ان زملاء فتحي في الحجرة ، كان لهم الفضل في نشر هذا الخبر ، حتى اصبح من الاشياء المألوفة ان يأتي كل يوم شخص او اكثر ليشربوا القهوة مع فتحي ويستمعوا الى ارائه في التدخين وفي الايام التي كان يتأخر فيها ، كان زملاؤه في الحجرة سواء منهم المؤيدين والمعارضين يقومون بشرح هذه الافكار لانها اصبحت تخص حجرتهم بطريقة ما ، وفي خلال اسبوعين لم يكن للمصلحة حديث سوى افكار فتحي عن التدخين واسفرت المناقشات عن وجود معسكرين بالمصلحة .. معسكر يؤيد فتحي بالقول والفعل والاخر يعارضه ويؤكد ان الفكرة لن يمتد بها العمر أكثر من شهر او شهور .

وبدأت المراهنات بين افراد المعسكرين ، واشتدت الحرب الباردة

بينهما ، والغريب ان هذه الحرب قد تجاوزت حدود المصلحة ، فلكل واحد في المصلحة اصدقاء خارجها وشلة يسهر معها في احد المقاهي، وهكذا اصبحت افكار فتحي عن التدخين تناقش في أماكن مختلفة وتلقى في كل مكان تصل اليه المعارضة والتأييد ، فكان كل واحد من انصار فتحي يأتي ليعلن امام الجميع انه كسب صديقا مثلا في وزارة الاوقاف أو وزارة العدل وكان من الطبيعي أيضا ان تنتقل الحرب الباردة داخل البيوت ، فالزوجات اللاتي اكتشفن فجأة ان أزواجهن اقلعوا عن التدخين ، ثم عرفن حكاية فتحي وآراءه ، كن بدورهن يتنافسن في تكريم فتحي هذا من مدخرات التدخين على شكل دعوات للغداء وللشاي ، بينما بدأت زوجات المعسكر الاخر اللاتي تصلهن الاخبار من هنا ومن هناك ينكدن على ازواجهن ، وفي نهاية الشهر احتفل « معسكر فتحي » في منزل هاشم الذي اصبح بدوره من كبار الدعاة احتفل الجميع بمولد « جمعية مقاطعة التدخين » وانتخب فتحي رئيسا لها ، واعلنت زوجة هاشم مع بعض الزوجات الاخريات تكوين « جمعيات اخرى اقتصادية » رأس مالها مدخرات التدخين تأخذها كل زوجة مرة في نهاية كل شهر لتنتفع بها في دفع مصاريف الاولاد او شراء حاجات حديثة للبيوت ..

* * *

وفي نهاية تلك الحفلة عاد فتحي الى بيته وحيدا فلم تكن له زوجة .. وانفرد بنفسه بعد ان هدأت الضجة ، وراح لاول مرة يفكر في هذا الموضوع كله ، كان الامر يبدو له غريبا ، كيف حدث هذا كله في شهر واحد !.. لم يكن يفكر في شيء من هذا حين قرر ذات مساء ان يترك التدخين ، كان الامر في البداية يخصه وحده وربما لولا فضول الزملاء ، ولولا رغبته في تبرير افعاله وشرحها لما احس احد بالموضوع وحتى بعد ان ذاع الخبر وانتشر كانت روح الفكاهة هي التي تسوده، وتغلب عليه ، ولكن الامر قد انقلب جدا في لحظة ما ، كان الجد والهزل يختلطان فيه بطريقة غريبة . وحتى فكرة الجمعية كانت تبدو كفكاهة لا يدري كيف التقطتها زوجة الاستاذ هاشم لتجعل منها حقيقة ضخمة .. فلوس تدفع في اول كل شهر ، فلوس كانت تنفث فيالهواء تتحول الى مصاريف اولاد وثلاجات ولكن .. الم تكن تلك المعادلة مناكتشافه هو ؟.. ماذا في ذلك... لماذا يتضايق من افكاره ..؟؟

وشعر بانه في حاجة فعلا الى ان يواجه نفسه بشيء من الصراحة، فلا احد هنا معه ، ويمكنه ان يفكر في هدوء . كانت تلك افكاره حقا وكان صادقا في كل كلمة قالها ، ولكن كان ذلك منذ شهر صباح الليلة التي قرر فيها ان يقلع عن التدخين ، وخلال هذا الشهر حدثت اشياء كثيرة ، اشياء احس بها في داخله .. احس بها حتى النخاع .. لم تتح له فرصة واحدة ليتأملها او ليحدث احدا بها .. كان الامر قد خرج من يده كلية ..

.. انصار ومعارضون .. ومراهنات .. واخيرا جمعية وجد نفسه على رأسها دون ان يكون بمقدوره ان يفتح فمه بكلمة واحدة . حتى وهو يشرح افكاره للزملاء الذين كانوا يفدون عليه كل يوم ، كان لا يجد في نفسه الجرأة للحديث عن هذه الاشياء التي يحس بها تمزق داخله ، كان يشعر انهم جاءوا ليسمعوا كلاما معينا ، وكان حين ينتهي من حديثه ، ويلمح في عيونهم الاعجاب بكلامه ، يحس بسخط هائل على نفسه وعليهم .. ان التجربة التي يحكيها ليست مجرد كلمات ، انها تجربة حية ، ولهذا فهي متغيرة .. كان يود ان يجد بين افراد معسكره شخصا واحدا فقط بدأ يعاني هذا التغيير ، كان ينتظر ان يفاتحه احد في شيء كهذا ليفتح له قلبه ، ولكن احدا لم يفعل، كانت افكاره حقيقة تماما لمدة اسبوعين قاوم خلالهما التوتر الحاد الذي كان يشعر به بعد ترك التدخين .. وحدث بعد ذلك ما كان يتوقعه، اختفى التوتر تماما ، كان لا يحس بالحاجة الى التدخين الا لحظات عابرة يقاومها في يسر . وشعر بسعادة بالغة ، لقد فك الدائرة اللعينة التي كان يعيش داخلها ، لقد تحررت لحظات حياته كلها من طعم التبغ ورائحته ، ولكن احساسا غامضا وغريبا بدأ يطارد هذه اللحظات ، احساسا بالفقد واحساسا بالانتظار ، كان يشعر ان كل لحظة في حياته قد فقدت شيئا ، وانها تنتظر هذا الشيء ، ومع انه كان مصمما على ترك التدخين نهائيا فان هذه اللحظات لم تكنتصدقه ، كانت دائما تتلفت في انتظار هذا الشيء المفقود كأنما لم تيأس بعد من عودته ، لحظات القراءة اصبحت لا تستغرقه ، انه يطفو فوقها دائما كأنما يبحث بدوره عن هذا الجزء المفقود ، يده تمتد الى جيوبه، وتفتح ادراج المكتب ، وتشعل اعواد الثقاب .. لحظات الفرح تفقد حدتها وعمقها وتوشك ان تتحول مع الشعور بالفقد الى كآبة وندم، لحظات العمل تمر بطيئة وثقيلة ولحظات الفراغ لا تنتهي ، والاحاديثلا تثير الاهتمام ، وحتى القهوة اصبح يشرب قدحين منها لكي يشعر بطعمها في فمه ، انه يشعر بكل هذه الاشياء بطيئة وهادئة ، ولكنها تبدو راسخة الجذور وكأنها لن تمل الانتظار ابدا .. والمشكلة انه لا يستطيع ان يتخفف من شعوره هذا حتى بمجرد التعبير عنه ، وبينما يستطيع أي شخص اخر في جمعيته المزعومة آن يعلن انسحابه وعودته الى التدخين فانه لن يكون بمقدوره ابدا ان يفعل شيئا كهذا .. ولكن هل هو يريد ان يفعله حقا ؟ ماذا يضيره ذلك ما دام مصمما على ان يظل مستمرا في التجربة ؟ ان ما يضايقه هو شعوره بانه اصبح محاصرا.. في البداية قاوم مضايقات افظع منهذه بكثير .. قاومهابارادة وتصميم، ولكنه الان يشعر أنها ليست ارادته هي التي تقاوم بل ارادة هذه الجمعية الوهمية التي اصبح يشعر بها كقيد آلعن الف مرة من قيود التدخين . ولكن هل هي جمعية وهمية حقا ؟ النقود التي دفعتالليلة والتي بدأت بدفعها حرم الاستاذ هاشم والامال التي استيقظت في الملابس والثلاجات وتدبير مصاريف الاولاد ، هل من اجل آن يشعر بحريته يعصف بكل هذه الامال ؟؟ واحس ان عليه ان يحل هذا الاشكال النفسي السخيف . ولكن كيف يحتفظ لنفسه بحريته وللجمعية بوجودها الحقيقي او المزعوم ؟

وطرأت على ذهنه فكرة بدت له سخيفة ورائعة معا ولكنه عجز تماما عن مقاومتها .. لقد قام من فوره ونزل الى الشارع واشترى سيجارة ... سيجارة واحدة ؟ وجلس وحيدا يدخنها في الظلام مع انه لم يكن هناك غيره في شقته ولم يجد للسيجارة طعما في فمه وبالعكس احس بدوار في رأسه وصداع خفيف وهتف لنفسه في سعادة :

ـ الان يمكنني ان اذكر انني انتصرت على السجاير الى الابد.. لقد هزمتها حين فقدت لذتها في حواسي .. لقد كنت انتظر وهما وكنت افتقد شيئا لا وجود له ..

وفكر ان يحكي في الصباح لزملائه التجربة التي مر بها ليلة

امس ربما كانوا يعانون مثله وبهذه الطريقة يمكنهم ان يتأكدوا من ان ما يعانونه ليس الا وهما .. ستنضاف هذه التجربة الى التراث الفكري للجمعية .. ان الجمعية شيء حقيقي وليست وهما كما تصور ..وفي تلك الليلة نام سعيدا بنفسه وبالجمعية ..

في الصباح تحدث مع زملائه في كل شيء عدا تجربة الامس .. لا يدري لماذا ؟ لقد فكر انه ربما لم يكن في قدرة كل شخص ان يمر بهذه التجربة وينجو منها ، لقد وضع يده في فم الاسد واذا جاز هذا بالنسبة له كرائد للجمعية ومفكر لها فانه لايجوز لغيره ان يلعب تلك اللعبة الخطرة ، كان الجميع يفكرون في المشروعات الجديدة التي تدبرها الزوجات ، ولم يكن يبدو ان ثمة قلقا من أي نوع يمرون به، كان كل واحد من اعضاء الجمعية يأتي كل يوم ومعه اخبار فتوحاته، وتحول عدد كبير منهم الى فلاسفة ومفكرين .. وكان فتحي يستمع الى افكاره القديمة وهي تنمو وتكثر حولها الشروح والتعليقات ، ويفتح فمه في دهشة وهو يستمع الى المعادلات الغريبة التي تتحول اليها مدخرات التدخين ، كان يريد ان يعصف بكل هذه الاشياء في لحظة ضعف . ولكن لماذا يذكر لحظات الضعف هذه ؟.. لقد عرف كيف يسحقها بطريقة غريبة لا يدري كيف خطرت على باله .. لقد كانت تعاوده احيانا لحظات الضعف هذه .. لحظات الشعور بالفقد والانتظار ولكنه كان قد عرف الحل .. سيجارة واحدة فقط يدور بعدها رأسه وينتابه الصداع الخفيف ويتبدد وهم الفقد والانتظار على الفور.

* * *

وذات ليلة اكتشف فتحي ان السيجارة التي كان يدخنها في الظلام لتدير رأسه اصبحت تهدده وان الصداع قد اختفى تدريجيا ليحل محله خدر ناعم لذيذ وتوتر خفي في نفس الوقت . وافزعه الاكتشاف في تلك الليلة ، فقد كانت نفس الليلة موعدا حدده اصدقاؤه للاحتفال بمرور شهرين على وجود جمعيتهم .. وكان مدعوا لتناول العشاء مع اصدقائه في بيت احدهم حيث يقام الحفل ..

وتحامل على نفسه وذهب لم يكن يدري ماذا يقول او ماذا يفعل ؟ كان قد فقد قدرته على التفكير والتبرير ؟ ومع ذلك كان يلمح في خاطره ان له ظروفا مختلفة .. انه رجل وحيد وليست لديه مالية وبمقدوره ان يحتفظ بالامر سرا حتى لا تنهار الجمعية ، انه لا يمكن ان يكون وغدا الى هذا الحد . . على أسوأ الفروض يجب ان يظل الموضوع سرا .

* * *

بعد ان تناول الاصدقاء عشاءهم وسط عاصفة من الضحك رفع احدهم اصبعه قائلا :

ـ لدي اقتراح اريد ان اقدمه لرئيس الجمعية ..

ووافق الجميع وفكر فتحي « ليت الامر كان هزلا كله » .

وقال الصديق انه لا توجد جمعية في العالم كله لها رئيس فقط بل لا بد ان يكون للرئيس نائب ايضا يتصرف في شؤونها في حالة غياب الرئيس مثلا او .. وقاطعه اخر ضاحكا ـ أو عزله ...

ورد ثالث : ما هي الحالات التي يعزل فيها الرئيس ؟

فعاد الاول يقول في حالة واحدة :

ـ اذا عاد الى التدخين .

واغرق الجميع في الضحك . ولحظتئذ فكر فتحي وهو يتظاهر بالضحك ـ « ان هذه الجمعية الشيطانية فيها شيء لله » .

وسأل أحد الزملاء : ومن ترشحون لهذا المنصب ؟

فقال الصديق : ـ هذا ليس مهما الان ، المهم فقط الموافقة على المبدأ .

القاهـرة — **محمد ابو المعاطي ابو النجا**